

الشعر الجفريّ عند سيدي لخضر بن خلوف⁽¹⁾.

د. عبد القادر فيطس

جامعة زيان عاشور الجلفة.

تقديم:

تتنمي القصائد الجفريّة إلى الشعر الدينيّ في موضوعها، وهي من أندر القصائد في الشعر الملحون الجزائريّ، والشعر الجفريّ -على قلّته- فيه يتنبأ الشاعر بحدوث تقع مستقبلاً؛ بالاعتماد على الرموز «يختص الشعر الملحون بنوع يسمّى الجفريات، وهو التنبؤ بالحدوث المستقبلية، والواقع أنّهم يتّخذون هذا الأسلوب كمطية للنقد السياسيّ، متّخذين لهذه الغاية إشارات ورموزاً يدركها المعاصرون ويفهمون مغزاها»⁽²⁾ أيّ وقائع يخبر بها على اعتبار ما سيكون، وكأنّها اختلاس من الغيب، وأمور الغيب لا يعلمها إلا الله باستثناء ما أطلعه الله من عنده للصالحين من عباده، فيضع على ألسنتهم كلاماً يقع لا محالة وعلى حدّ تعبير ابن خلدون «إنّ البشر محبوبون عن الغيب، إلّا ما أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية»⁽³⁾. وتعتمد قصائد الجفر -أحياناً- على الحروف كرموز للدلالة على توضيح شيء غامض، أحوادث تأتي في المستقبل، ويرى الباحث عبد الحميد صالح حمدان في تقديمه وتحقيقه لرسالتين في سرّ الحروف ومعانيها، واحدة لابن عربيّ والأخرى "لأبي الحسن الحراليّ" بأنّ الحروف «فرع من علم الجفر، وهو علم يبحث فيه عن الحروف من حيث هي بناء مستقلّ بالدلالة، ويسمّى كذلك

بعلم التفسير، ومنه تعرف حوادث العالم إلى انقراضه، وقد أضحى هذا العلم، وعلى يد بعض الفرق الباطنية نوعاً من الممارسة السحرية»⁽⁴⁾. ويرى بعض العلماء أنّ الحروف وأسرارها سارية في الأسماء، وسارية في الأكوان وتتصل بالروحانيات والفلك والتنجيم، والصوفية يرون أنّ الحروف لها دلالات خاصة في أسماء الله الحسنى المشعة بالأسرار والخواص وينال بها كلّ مطلوب، والحروف عندهم تكمن في الحقائق البسيطة للعلم الإلهي قبل انصباغها بالوجود العيني، ونجد أسرار هذا العلم ماثلة في كتب المتصوفة كما يقول الحرالي: «وكذلك في سائر الأسماء والمسميات في جميع اللغات يختص كلّ اسم من الحروف بما يناسب أحوال تلك الأمة في ذلك المسمى في إدراكها وانتفاعها به»⁽⁵⁾. ويتخذ أسلوب الجفر كمطية للنقد الاجتماعي والسياسي بروى مستقبلية؛ صادرة عن هبة غيبية يهبها الله لمن يشاء من عباده الصالحين. ومن أشهر الكتب التي ألّفت في الجفر كتاب "مفتاح الجفر الكبير" لمحمد بن علي السنوسي⁽⁶⁾، يعتمد المتصوفة بكثرة.

ويبدو أنّ أصحاب الطرق الصوفية متأثرون بأفكار علم الباطن، حيث يتكلمون عن كتاب الجفر للسنوسي، هذا الكتاب العجيب الذي يعجّ بالرموز، وكثير الغموض، ويعتبرونه من مصادر علم الباطن ومستودع لأفكاره، وأورد العياشي في رحلته مفهوم ابن عربي للجفر بأنه «من الأسرار التي اختصّ بها الأنبياء وورثتهم من العارفين الكامل»⁽⁷⁾ والشعر الملحون كان وعاء الشعر الجفري لأنّ لغته تناسب خطابه، وفي المناطق السهبية والجنوبية يطلق على الجفر اسم النشد. ومن أشهر القصائد الجفريّة التي كانت البذرة الأولى في هذا الغرض؛ أوردها سونك في قصيدة "صلو على

النَّبِيِّ وارضو على العشر⁽⁸⁾، وقصيدة أوردها الباحث "عبد القادر جلول دواجي" هي "يا ناس اللي ما تقرأوا اجايه"⁽⁹⁾ وهما للشاعر الأخضر بن خلوف. ففي القصيدة الأولى "صلو على النَّبِيِّ وارضو على العشر" يتنبأ بما يقع ببلاد المغرب وإفريقيا، ابتداء من القرن الثاني عشر الهجري إلى ما بعدها، منها هذه الأبيات:

تفنى ببلاد سبته كثير من الإسلام	وهراڻ على أثر قولي ذا الحديث وبوحا
وتشوف الهول والطراد بين الميم واللام	حتى تقول ربي وخذ هذه الروحا
أول اثنا عشر القرن بالقرون اعداد	يا بن خلوف بعدك تشوف ما يطرا
تبرا وتزول هذه الهموم والاكاد	وتعود فرح وسرور ما ترى كشرا
بإذن الله وهران تعود للإسلام	بالعلم والعمل والمحاضر والقرآن
بالذكر والزكاة والصلاة والصيام	ورجال غايطين في مساجد الأذان
وتعود رحمه للغريب والأيتام	واطعام من تولى وسوقها رنان
ترخس جميع الأسعار من الزرع والثمار	بإذن الله ربي هو أعلم وادرا
طامة تجي من البحر كالنمل غوار	تدي قليل من الإسلام مكبل أسرا
وشي إسلام ترتد ثانيا للكفار	والناس باقيه في الهلاك والقهرا
ويجوك قوم الأتراك والعرب يا اجناد	ويوقع طراد كثير ثما في غمرا
والرجال ضاجه والنسا مع الأولاد	والكور يخطط مع الرصاص لا فترا
يا من سمعت قولي أفهم لذو الأوزان	لو كان تطول عمرك ترى هموم كثيرا
آخر الزمان ما تروا من الامحان	تكثر أهل المعاصي تغيب أهل الخيرا
تولي أهل المعاصي تجوز بالطغيان	حولي وقوتي بك صاحب التدابير
تخرج على الجزائر عساكر الخزيان	بالبومبه والمدافع ومحيرق تزفرا
هذا الكلام ميم وقبن القدر	واليا على أتره زيد الدال في الجرا
بعد تمام ذا القول تفحط العباد	تبقى نحو شهرين ترجع الكشرا
نوريك حدها من بلاد محمد	لطرابلس حتى لتونس الخضرا

في هذه القصيدة يتنبأ الشاعر بزوال المصائب والهموم والأحزان وتسود الأفراح، ويعود الإسلام إلى مدينة وهران، وتكون كعدها منارة للعلم والنشاط التجاري؛ إلى أن يأتيها الاستعمار الإسباني، حيث يعيشون في أرضها فسادا، ويعذبون سكانها وينهبون خيراتها؛ ثم يقبض الله رجلا يهبون لنصرتها من عرب وأتراك ليحرروها من الإسبان، وبعدها يعود الأمن والاستقرار، وتتوحد القبائل والعروش وتتأخى الناس، وبعد مدة تسقط في براثن الفساد والمعاصي فيقل الخير ويكثر الشر، فيستغل الإسبان هذه الظروف ليعاودوا الهجوم على وهران وسواحلها، حاملين معهم عدة وعتادا كبيرين من مدافع وأسلحة وقنابل فتاكة، يعلن الجهاد مرة أخرى، ويتصدى لهم السلطان محمد في معارك طويلة؛ تدوم شهرين، وأثناء ذلك ينتشر القحط والمجاعة، ثم يعود السلم بانتصار السلطان، ويعم الاستقرار في الجزائر عامة وتركيا وطرابلس وتونس.

وفي الختام استعمل أربعة حروف هي: الميم، القاف، الياء، الدال ومجموعها "مقيّد" فارتباط العدد بهذه الحروف يعني شيئا ما، وهذا يرجع إلى تأثير جدول الأبجدية⁽¹⁰⁾، حيث يقترن كل حرف بعدد معين، ورقم ثابت لا يخصّ غيره. فالميم مقرون برقم 40، والقاف مقرون برقم 100، والياء مقرونة برقم 10، والدال مقرون برقم 4.

وهذه القصيدة غير مؤرخة ولم يورد الشاعر إشارة أو تلميحا عن سبب نظمها، إلا أنها تعجّ بالأحداث والوقائع التي تنبأ بها، وحدثت فعلا

حسب المصادر التاريخية التي تؤرخ للاحتلال الإسباني على السواحل الجزائرية.

والقصيدة الثانية "يا ناس اللي ما تقراو اجابه" يتنبأ فيها بما سيحدث في آخر الزمان من كثرة المعاصي والفساد وأحوال الناس في حب الدنيا ونسيان الآخرة، ويكون قد استفادها من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم حول الساعة وعلاماتها، فيقول:

يا ناس اللي ما تقراو وجايه	غارسين الركايذ خيمه بلا عمود
ما معاه مروه ولا مسقمه	يعود صاحب المال مشرف النسب
والشريف هنا والهيه يرتمي	بالعيون يشوفوه والقلوب عاميه
الكذب والخدعه والجور والحسد	لا وقر لا حشمه لا عز لا حياء
الغته والنهب في الجار بالشهود	تاريخ عظيم جبرتو يا أهل الكرام
قريتها شاو والحال على أذن الجدود	الهموم يا سره راهي للناس جايه
قرن الثالث عشره وخوه في الوجود	عقت الدنيا جات اليوم للحضر
فتاة بنت الشرفه في الهم والكروود	والشرف معها سجره خاويه
والنسا في الأسواق الا يشبروا	متعاندين على صرف المال والشباح
يوم ليهم وغدا لهواك ينكروا	مالكيين الفحشا بالصوت والصياح
القلوب ملانه بالغش والسدود	وسيوفهم في المقلب تعود حافيه
تابعين الربا واليجره والحفان	المسنه من دون الجار حافيه
الخديعه في الجوامع وقت السجود	يعظموا الأميين تقوى أهل الخمر
أهل الخديعه غيروا الحكمه في البلاد	وارثين الكرسي أمره في الشرع
مشمطين الضحك تمثيل للقروود	لا حديث يوالم لا قلوب صافيه
الخلوفي راقب تشوف ما يعود	خذ تقريب الساعه حق بلا حساب

في هذه القصيدة يتنبأ فيها بما يحدث في آخر الزمان، من آثام ومعاص، وأحوال المسلمين في حب الدنيا والغفلة عن الآخرة، حيث يشبه المسلم الغافل عن أمر دينه كالخيمة بلا أعمدة ترتكز عليها، ويتحسر الشاعر على سوء أحوال الزمان، وكيف انقلبت أمور المسلمين، يشرف ويعظم صاحب المال ويهمش الأصل وينتشر الخداع، والتعامل يكون بالكذب والنفاق، ويغيب الحياء والوقار، ويشيع الظلم والنهب والغيبة، ويشبه الفتاة الشريفة بالشجرة بدون ثمار، لا يأبه بها أحد ولا يهتم بها أحد، وبذهاب القيم الفاضلة محل محلها التفسخ الأخلاقي بريادة النساء المتبرجات اللاتي لا هم لهن إلا التزيين، وتضييع المال في الفواحش واللغو. وتنبأ بانتشار الحسد والبغض بين المسلمين، والتعامل بالرأبا والخداع والظهور بغير الاعتقاد السليم في المساجد، كما يرتفع شأن الأميين ومتعاطي الخمور وتوكل لهم المناصب العليا في السلطة.

إن تنبؤات الشاعر تجاوزت زمنه إلى أزمان أخرى، ويبدو أنه اطلع على ذلك من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والسيرة النبوية والتراث الديني؛ فوظفها في قالب شعري، وظلت هذه القصائد راسخة في الذواكر الشعبية، ويحملها المخيال الشعري جيلا بعد جيل.

والخلاصة أن أشعار الجفر قليلة جدا في الشعر الملحون، وأن أكثرها موجود في التعبير الشعبي، على شكل أمثال وحكم ونصائح، وأحيانا تأتي في شكل ألغاز تتضمن تنبؤات في المستقبل، بعضها يأتي على السنة الأولياء والصالحين أو الدراويش أصحاب الأحوال الذين اصطفاهم الله، ووهبهم بعض الأسرار من الغيب، تأتي عفوية على ألسنتهم، وتستقرأ أحداثا تقع

مستقبلاً. ورغم هذا فقد استطاع "الأخضر بن خلوف" أن يؤسس لتنبؤاته شعراً بحكم أنه أحد الصالحين والزاهدين الذين وهبهم الله هذه المنحة وأطلعهم على هذا القبس من السرّ الإلهي.

-الإحالات:

- 1- هو الشاعر لكل بن عبد الله بن عيسى الشريف، كان مولده في أواخر القرن الثامن الهجري بمقراوة، وعاش القرن التاسع للهجرة، له قصائد كثيرة في التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم للتفصيل ينظر ترجمة سيدي الأخضر بن خلوف، في الديوان، جمع وتقديم: محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، مطبعة ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، 2001م، ص: 23 وما بعدها.
- 2 - محمد الفاسي، معلمة الملحون، القسم الأول، من الجزء الأول، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب، 1406هـ-1986م، ص: 39 .
- 3 - ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت، ص: 330 .
- 4 - محي الدين بن عرابي، سرّ الحروف، وأبي الحسن الحرالي، موادّ الكلم في السنة جميع الأمم، رسالتان، تقديم وتحقيق عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، دت، ص: 06 .
- 5 - المصدر نفسه، ص: 53 .
- 6 - محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية في التصوف المتوفي سنة 1276هـ-1859م.
- 7 - العياشي عبد الله بن محمد بن أبي بكر، الرحلة العياشية "ماء الموائد"، ج2، مطبعة فاس الحرجية، المغرب، 1316هـ، ص: 07.
- 8 - ينظر: سونك، الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب، تقديم: أحمد أمين، سلسلة الأنيس منشورات موفم للنشر، الجزائر، 1994م، ص: 367 وما بعدها.
- 9 - ينظر: عبد القادر جلّول دواجي، الخطاب الشعري عند سيدي الأخضر بن خلوف، دراسة تحليلية، رسالة ماجستير، إشراف الأستاذ محمد سعيدي، جامعة تلمسان، 2002م - 2003م، ص: 284 وما بعدها.

- 10 - جدول الأبجدية اسم للألفاظ التي جمعت بها حروف الهجاء العربية لحساب الجمل، ويسمى كتاب الأبجدية، حيث نجد كل حرف مقرون برقم معين، ويستخدم في الفلك وعلم التنجيم. ينظر: لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط5، د ت، ص: 01.